الأديبة الإسلامية والبوح الوجداني

حميدة قطب *

ترددت كثيراً قبل أن أوافق على اختيار هذا الموضوع للحديث في هذا الملتقى، هذا الموضوع الذي اقترحته عليَّ لجنة الأدبيات الإسلاميات الموقرة في رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وهو موضوع: (الأديبة الإسلامية والبوح الوجداني).

لم يكن ذلك التردد بسبب عيب في الموضوع أو نقص في قيمة تناوله وبحثه من قبل حركة الأدب الإسلامي، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن ذلك التساؤل الذي يتردد ملحاً على قلب الحركة الأدبية الإسلامية يعد أحد نقاط الانطلاق الشديدة الأهمية، التي تحتاج إلى البحث الدقيق، وتحتاج إلى تبادل الرأي الجاد المتزن بين أولئك الذين يشغلهم أمر هذا الأدب الذي يبني الآن قاعدته الصلبة ويثبتها في أرض الإسلام، كذلك أولئك الذين يهمهم قيام مجتمع إسلامي على أسس إسلامية متينة ونظيفة، فالصورة المهيمنة الآن لا تمت إلى الإسلام، والآراء حولها مليئة بعد بالغبش بين مانع لأي صورة للبوح وبين تارك للحبل على الغارب!.

كذلك، فلم يكن ذلك التردد بسبب غبش في رؤيتي لجوانبه المتعددة، ولا بسبب تأرجح في قناعاتي حوله، فلقد عاشت مشكلته بتفاصيلها الكثيرة في نفسي زمناً طويلاً، خاصة وأنا أقرأ لأدباء مسلمين ما قد اعتبر في ساحة الأدب الإسلامي أدباً رائداً.

ولقد بدأت فعلاً في بلورة قناعاتي تلك في ثنايا رواية قد بدأت بالفعل العمل فيها قبل تلقي هذه الدعوة الكريمة من لجنة الأدبيات الإسلاميات واقتراحها هذا الموضوع عليَّ بفترة وجيزة، وفي نيتي أن أطرح من خلالها نماذج من البوح الوجداني في الإطار الذي أراه جائزاً في حياة الفتاة المسلمة، والخطوط الصحيحة التي يجب أن تسير فيها مشاعر الناس وعواطفهم، والحميمة منها خاصة، في مجتمع يبني نفسه على قواعد الإسلام ويلتزم بروحه وبتعاليمه. ثم أبين الحدود التي لا يصح

(*) كاتبة وأديبة مصرية.

تخطيها في هذا الأمر البالغ الحساسية، والخطيرة نتائجه على المجتمع عموماً وبخاصة المجتمع الإسلامي الذي لا بد أن يقوم على بناء أخلاقي نظيف ومتكامل له طبيعته ومثله ومفاهيمه التي لا تتماثل مع المجتمعات التي تعمر الكرة الأرضية الآن، بل نستطيع أن نقول بأنها لا تتشابه مجرد التشابه معها!.

ولكن ترددي كان بسبب الحساسية العميقة لجوانب في البحث يعد لمسها والخوض فيها جزءاً من قناعاتي تجاه هذا الأمر، تلك التي تضع حدوداً وقيوداً كثيرة على الخوض فيها!.

ولكني، وبعد فترة من الصراع داخل مشاعري لم تطل، ترجح لدي اختيار القبول، فخطورة المسألة تستدعي أن يكون هذا الموضوع مطروحاً للحديث والمناقشة بقدر من الصراحة، وأن يكون بيان وجه الحق فيه واجباً إسلامياً بالغ الضرورة، عميق الأهمية للمسيرة الأدبية، فالأدب الإسلامي مدعو لأن يقوم بواجبه وبدوره المهم في إعادة صياغة كيان الإنسان المسلم، والمجتمع الإسلامي بالتالي، المجتمع الذي يقوم على قاعدة أصيلة من عبادة الله واتباع طريقه الذي لا بد أن ينبني على سلامة الفطرة ونظافة المسلك ونبل الهدف.. وبالتالي لقيام الأمة التي تتقدم لحمل الأمانة الكبرى التي من أجلها قد أخرجت هذه الأمة من قبل، والتي تم على يديها من قبل إنقاذ العالم من الضلال الذي كان يضرب بأوساخه في حناياه!.

وإني لأعلم أن كلمة (البوح) تعني لغوياً معنى محدداً هو عكس الكتمان، وإني لأعلم أيضاً أن عنوان موضوعنا ينصب فيه التساؤل على هذا اللون من البوح الذي يثير التساؤلات حول ما يجوز وما لا يجوز وأي مجالاته يحسن فيه البوح وأيها يستهجن، وعلى أي اعتبار يجوز ما يجوز، ولا يجوز ما لا يجوز...!.

ولكني - مع هذا أيضاً، أجد للكلمة - كلمة البوح - حين تضاف للأديب معنى أوسع وأشمل، فما يعيش في وجدان الأديب من انطباعات وتأثرات، هو عالم خاص مكنون؛ له آفاقه الخاصة ولونه المتفرد؛ حتى إذا خرج في تعبير أدبي كالزهرة تتفتق عن أكمامها، فهو لون من ألوان البوح كان مكنوناً من قبل ومكتماً، وكان سراً في وجدان صاحبه لا يملك أحد أن يطلع عليه!.

ولسوف أتناول - إن شاء الله - في هذا البحث الحديث عن هذين اللونين من البوح، لتبين المساحة الواسعة التي يستطيع أن يتحرك فيها وجدان الأديبة ويبوح؛ ثم لتبين كذلك محدودية «الحمى» الذي لا يجوز «للراعي» أن يقع فيه، أو لا يحسن به ذلك.

*****

البوح الوجداني؟ .. نعم.. هو قضية الأدب الأولى.. بل هي الأدب بذاته.. بل هي أيضاً قضية الإنسان!..

ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر على «الإنسان» حقه الرباني في أن يبوح بمكنون مشاعره؟! وهي خاصية من خواصه التي حباه الله إياها ورفعه بها مع غيرها من الخواص، ليكون سيد الأرض، وليكون هو الخليفة الممكن المكرم على كثير من الخلق تكريماً!.

من ذا الذي يستطيع أن يرد «الإنسان» - بعد النفخة العلوية المهداة - مخلوقاً أبكم القلب مغلق الوجدان، يكفيه من دنياه ما تطوله الحواس وما يحتاجه الجسد، فتخفت في كيانه تطلعات الروح ونبضات القلب وموَّار المشاعر؟!.

كلا! فالوجدان قطاع أصيل في الكيان الإنساني، عمقه فيه هو عمق وجوده الحي، وهو ومعه غيره من خواص النعم التي تفرد بها الإنسان بفضل من الخالق، من المعالم الكبرى لإنسانيته، وهو طريق إلى معرفة الحق، وهو منفذ مضيء إلى عالم الغيب الواسع، وهو سبيل التواصل الحي بين الإنسان والإنسان، وهو الطريق إلى عوالم الشعور الثرية التي لا تبلغ إليها الحواس ولا يستطيعها بمفرده العقل!..

فمن ذا الذي يستطيع أن يحرم الإنسان من نعمة البوح الوجداني وهو أداة التوصل بين الإنسان والإنسان، وأداة التلاقي الفائقة بين القلوب والقلوب؟!.. وكم تخسر الإنسانية من ثراء إذا أجبرت أداة التواصل هذه على الصمت فأغلقت الطريق بين القلب والقلب، وبين الإنسان والإنسان، وكم يخسر عالم الأدب الجميل؟!.

البوح الوجداني إذن ضرورة حتمية في حياة البشرية، بإغلاقه تنغلق آفاق الوجود الإنساني الواسع، فلا يتبقى للإنسان غير عالم المادة وعالم الحواس! وما أضيق العيش! وما أبأس الإنسان! وما أرذل دنياه إذا انحصرت في عالم المادة وعالم الحواس، حتى لو بقيت له إشاعات من نبض العقل!.

فأما الأدب، فعليه عندئذ أن يغلق أبوابه جميعها، فتخسر الإنسانية هذا الرصيد الهائل من المشاعر! وأما الأديب فعليه أن يقبع حسيراً مختنقاً، لا متنفس لقلبه ولا مخرج لحياته!.

.. نعم.. ذلك كله حق.. ولكن مهلاً! فليس سهلاً إطلاق الأمر هكذا في كلمات قصار تترك الباب مفتوحاً على مصراعيه يدخل منه كل غث وسمين، ويمر منه إلى الجمال القبح، وينفلت من خلاله القذى إلى القلوب، والدمار إلى النفوس!.

فكما تدخلت يد الإنسان فأفسدت الكثير مما خلق الله جميلاً وبديعاً، فقد تدخلت في أمر الوجدان والبوح بالإفساد والتخريب، وامتدت إليه بالتحريف والتغيير على غير هدى من الله ولا بصيرة من الفطرة السليمة المستقيمة على الحق الذي فطرها الله عليه، فأصبح الأمر يحتاج من هذه الصحوة إلى مناقشة طويلة وتعديل وتصحيح كبيرين.

إن عنوان موضوعنا هذا بذاته لدليل على مدى التحريف الذي أصاب مفهوم الوجدان في حسّناً، ومفهوم البوح الوجداني، وهو يوحي إلى نفوسنا بمدى الضيق الذي صار إليه هذا المفهوم ومدى الاختزال الذي أصابه في عصر المادة والحواس هذا! إن جملة: «البوح الوجداني» هنا تعني في حسنا ذلك الحديث غير اللائق الذي تصبه في الأوراق أديبات هذا العصر، تحكي فيه عن مشاعر حميمة عايشتها وتجارب لائقة أو غير لائقة مارستها في مجال واحد حساس من مجالات العاطفة!.

إن عاطفة الحب في حقيقتها هي عالم واسع من عوالم الوجدان، وإن عوالم الوجدان في حقيقتها لتتسع وتتسع حتى تشمل مجالات الوجود، ومع ذلك ينحسر مفهومها في حسنا، ويضيق حتى يكون إيحاؤه منحسراً في هذا المعنى المحدود القليل!.

علينا إذن قبل أن نطلق صيحتنا بضرورة إطلاق سراح البوح الوجداني من قيد التزمت، أن نطلق مفهوم الوجدان ذاته من سجنه العصري، وأن نخلصه مما أصابه من اختزال وانكماش وضيق بفعل طغيان حضارة الحس والجسد التي تطمر عالمنا الحاضر.

إن الوجدان هو الانطلاقة الكبرى إلى اللا محدود، تلك التي انبثقت من النفخة العلوية في قبضة الطين، فحررت الإنسان من الالتصاق الدائم بالأرض والسجن الحسير داخل أسوار الحواس، والعجز الذي يغل عن الانطلاق إلى عوالم النور في الفضاء الرحب، وهو الذي وهب الإنسان القدرة على التحليق بمشاعره خارج أسوار الواقع المحدود، في ثراء عوالم واسعة من ضياء، لا تؤهله لها قبضة الطين لو تخلى عنه فضل الله فجعلها تستقل بكيانه، أو تخلى هو عن فضل الله فانكمش داخل قبضة الطين وقبع هناك، كما هو الواقع الآن في دنيانا.

كل العواطف وكل المشاعر التي يتسع لها هذا الوجدان الثري، كل العواطف وكل المشاعر التي تتذوقها وتعانيها وتحتضنها النفس الإنسانية في مسيرتها الحياتية هي أبواب مفتحة للبوح الوجداني، وهي تتسع وتتعدد وتتنوع بتعدد واتساع وتنوع مجالات الحياة وألوان الجمال في الكون بل وحتى ألوان القبح، وهي تتلون وتتمايز بتلون طبائع الأفراد وثقافاتهم وتجاربهم وتاريخهم ومكونات حضاراتهم وأشكال مجتمعاتهم! وما إبداع الأديب، وهو ذاته بوحه الوجداني، إلا حصيلة متميزة لذلك كله!.

ولكننا كما رأينا، فإن كلمات «الوجدان» أو «البوح الوجدان» على الخصوص قد أخذت في حسّنا.. في وعينا أو لا وعينا مفهوماً آخر شديد الانحسار، شديد الضيق محدد الملامح والأطر، مفهوماً تستنكره النفس أو تتوجس منه، فلقد تمركز المفهوم وانحصر في مشاعر الجنس التي أطلق عليها وحدها كلمة (حب)!.. على حين أن هذه الكلمة - في لغتنا الجميلة على الأقل - تضم في حروفها القليلة مائة معنى ولون من عواطف الحب التي يملك القلب الإنساني أن يضم عليها جوانحه، والأدهى من ذلك أن هذا المفهوم الضيق لم يبق في عليائه التي كانت له في ماضينا السامق بديننا وأخلاقنا، ولكنها هبطت رويداً رويداً وتحدرت إلى مكامن قبضة الطين فلم تغادرها إلا في النادر القليل، حتى غدت الكلمة في كثير من اللغات والمجتمعات تعبر تعبيراً صريحاً عن الفعل القبيح! هذا التعبير الذي بدأ يزحف إلى لغتنا ومجتمعنا بفعل المحاولات اللئيمة التي تناضل منذ بعيد لتنقل إلينا أوضار ذلك العالم الضال!.

هذا النزوع العصري الملتاث الذي يهدف إلى تحجيم مساحة الوجدان الإنساني، ثم حصره في هذا المجال الضيق - مجال الجنس - وبالتالي حصر العمل الأدبي والبوح الوجداني في هذا اللون المحدد من ألوان الحب ومن مساحات العواطف البشرية، ومحاولة إهمال، بل إسقاط مجالات الحب الفسيحة العديدة التي يملك القلب أن يجوبها وأن يحيا فيها بأعماق وأبعاد وألوان بديعة ورائعة، فضلاً عن مجالات الوجدان البشري التي تنساح بآفاقها وأعماقها في بدائع الوجود الحي كله، تلك التي لا يحصيها إلا خالقها، هذا النزوع الملتاث هو أحد أخبث أمراض عصرنا، عصر طغيان حضارة المادة وعبادة الجنس، وهو من أخطر المؤامرات لهدم «الإنسان» في حياتنا!.

والآن فإذا كان عنوان موضوعنا هذا قد ألقى في حسنا بهذا المفهوم، سواء كنا مخطئين أو مصيبين، وإذا كان انطباعنا هذا يعني الأديبة الإسلامية، ويكون التساؤل حول ما يجوز وما لا يجوز بالنسبة «للأديبة الإسلامية» التي هي عن يقين امراة مسلمة مجاهدة، وهذا ما تلقيه هذه الأوصاف في الحس، فإن الموضوع يكون مهماً، بل بالغ الأهمية، بالغ الحساسية في آن واحد! ذلك أنه يخص امرأة مؤمنة تقف على ثغرة من ثغرات الإسلام تجاهد لتنتشل أمة من وهدتها وترديها، وتقاتل لتصد هجوماً شرساً لعدو متواطئ يحاول جاهداً اقتلاع جذور الإسلام من أرض الله، وهي امرأة ذات سلطان! فهي تملك بالكلمة أن تبني، وبها تملك أن تهدم! وهي بذلك ذات دور حساس وخطير!.. فهل لها يا ترى أن تطلق العنان «للبوح» أن يهدم أو يبني كما يعن له، فتعبث بالوضع المتميز الذي وهبها الله إياه على ثغرة من ثغرات الجهاد لهذا الدين الحنيف!.

إن الأمر إذن خطير!.. إنه يستدعي منا أن نعود لنلقي نظرة سريعة على الجذور البعيدة لكياننا الحضاري الذي انبثقنا منه أمة وأفراداً، وكذلك علينا أن نلقي نظرة ولو سريعة بما تسمح به هذه العجالة على القاعدة التي انبثقت منها هذه «الحضارة» المهيمنة على حاضرنا، هذه التي تغرقنا وتطفو فوق أرضنا وفوق عقولنا وقلوبنا، فتبدل مفهوماتنا ووجداناتنا، ورؤيتنا، بل وحتى فطرتنا!.. ننظر ونقارن

لنرى إن كان هذا الزي الحضاري مناسباً لقدِّنا أم أننا نختنق بداخله ونذوب ونحن في إغماءتنا لا نستشعر الخطر القريب!.

نتساءل كيف ضاق عالم إنسان العصر حتى انحصر في عالم المادة ومطالب الجسد، ولماذا أغلق على نفسه هذا القفص الحديدي الجبار رغم إبداعه المادي الذي فاق كل إبداع والذي قد يوحي إلى نفوسنا أن هذا الإنسان خلق عالي الهمة مفرط الذكاء؟ ما الذي جعله يسد أبواب الآفاق ويقبع حسيراً في قبضة الطين تحتها أو فوقها سواء؟ ماالذي جعله يغلق منافذ الوجدان الإنساني ليحترق في أتون الجسد فلا يجد في عمره المحدود أنفاس الاسترواح، ثم يفرز في أتونه ألواناً من «البوح» يسميها أدباً يفرضه على الغافلين المستضعفين، فيهووون وراءه إلى الهوة السحيقة، إلى قبضة الطين معزولة عن نفخة الروح!؟. وفي غفلة منا في زمان الاستضعاف يهيمن ذلك البوح المسموم ويسيطر على الساحة حتى لا يجد أدب الآفاق المضيئة وبوح الوجدان السامق مكان قدم في الساحة المكبلة بالحديد، الغارقة في سعار الجنس!.

إنه قبل كل شيء هو ذلك الصدود الجاهل القاصر لإنسان هذه الحضارة، ذلك الذي قطع الطريق بينه وبين الله سبحانه!.

وإنه هذا الجهل المستكبر الذي أوكل مسيرة الإنسان إلى الإنسان، واستغنى عن علم العليم الخبير الذي يعلم حقيقة من خلق، فيعلم خباياه ودقائق كيانه، فيرسم له الطريق الذي يتناسب وحقيقة ضروراته وأشواق روحه.

وإنه ذلك الظلوم الجهول الذي سجن نفسه في قفص الحواس الضيق ورفض أن يؤمن إلا بما تمليه عليه فسجن عقله معه في سجنه الرهيب.. عندها انطلقت صيحته القاتلة على يد دارون تعلن له حيوانيته وماديته!..

وعندها قام عدوه اللدود ليطلق صيحته الخبيثة الجذور.. ليكمل لف الحبل حول عنقه، فيقول على لسان فرويد: إن حيوانية الإنسان هي حقيقته الكبرى، بل إنها أعمق وجود وأخطر وجود في كيانه، فهلموا إذن إلى حيوانيتكم قبل أن تصيبكم كوارث العقد وأحزان الكبت، وانطلق السيل إلى هاويته لا يلوي على شيء!.

ثم توالت بعدها الصيحات المحمومة أن أسرعوا قبل فوات الوقت، فإنما هي حياة واحدة إن لم تغتنموا فقد خسرتم كل شيء، فلا تستمعوا لمن يمنِّيكم بحياة أخرى مطمورة في ظلمة الغيب، فما عاد إلينا أحد ممن ذهبوا لينبئنا بذلك! ثم مضى الركب يركض مجنوناً إلى الهوة السحيقة! وكنا غثاء كغثاء السيل فجرفنا التيار!.

فلما صار الجنس هو أبرز معلم في إنسان هذه الحضارة، ولما غدا الجسد ومتاع الجسد وحده هو سيد الساحة، ولما كان الأديب هو أكثر أبناء قومه حساسية لمفهومات عصره، فقد اندفع تيار الأدب الساقط إنسانياً يجوب الآفاق المعمورة ويغرق الساحة، وأضحى كل أديب يريد أن يجد له مكاناً في الساحة المزدحمة يسارع فيملأ الصفحات بهذا اللون من «البوح الوجداني» الذي سقط في وهدة الطين إلى أذنيه!.

هل كان للأديبة أن تتخلف عن هذا السباق؟! أن تظل مبعدة عن ساحة هذا الأدب؟! هذا الذي أخذ بيد المتلقي يدفعه رويداً رويداً إلى قاع عكاراته فأصبح لا يستمرئ غير هذا الغذاء الآسن؟!

كلا.. فليست الأديبة، وهي امرأة موهوبة بأقل من ذلك الرجل الموهوب!.. إن عليها أن تأخذ مكانها في الساحة ولو كانت ساحة عفن!.. ثم أليست بشراً هي أيضاً، جنسها من جنس الرجل؟! ألم تنشأ من نفس المادة التي نشأ هو منها؟! ألم تبدأ من الخلية الواحدة - أحقر المخلوقات - ثم تواصل مسيرتها إلى الحيوان، ثم تنتصب إنساناً آخر المطاف مثله تماماً؟!.. فلماذا إذن تحرم من حرية الهبوط إلى المنبع والأصل كما هبط؟!.. ثم تكفلت لها مبادئ العدل وحقوق الإنسان والمساواة وحقوق المرأة، وقد ناضلت هي تحت ظلها، تكفلت لها بحرية الهبوط إلى حيث هبط الرجل! وكانت الفطرة قد تاهت في زحمة الصراع المرير الطويل، فانطلقت الأديبة تبوح!.. تبوح بكل ما يبوح به الرجل من حيوانيته!.. حتى ذلك الذي يتنافى جذرياً مع فطرتها، ويتناقض مع صميم مشاعرها الحميمة الأصيلة!.

فأين نحن من دوامة السقوط هذه؟!.

وكيف يكون طريقنا الأدبي في هذه المتاهة؟!.

وكيف يكون موقف الأديبة المسلمة من البوح الوجداني؟.

قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة علينا أن نبحث عن حقيقة ذواتنا، وأن نتعرف على حقيقة مهمتنا، علينا أن نعرف من نحن، أديبات وأدباء ومتلقين مسلمين.

إن كل أمة في الوجود وكل حضارة سجلها لنا التاريخ قد نشأت نشأة طبيعية حسب قوانين نشأة الأمم والحضارات التي عرَّفها المؤرخون، فيما عدا هذه الأمة، الأمة الإسلامية، فقد قال عنها ربها ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[١]، إنها قد أخرجت إخراجاً ربانياً لمهمة عظمى لم توسد من قبل إلى غيرها من الأمم، حتى أمم الأنبياء السابقين.

وبسبب هذه المهمة، فلقد صيغت هذه الأمة صياغة خاصة لتتشئ الإنسان الذي قال عنه ربه: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[٢]، فالإنسان الذي توكل إليه هذه المهمة الضخمة، مهمة إيصال نور الحق إلى كل الخلق، وإقامة العدل الرباني في الأرض، المهمة التي قال عنها أحد قادة المسلمين إلى قائد الفرس حين سأله ماالذي جاء بكم فقال: (لقد ابتعثنا الله ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) [٣]، هذا الإنسان لا بد له من أن يكون في أحسن تقويم.

من أجل ذلك كانت لإنسان هذه الأمة مواصفات خاصة، ومبادئ أساسية وفرعية يصاغ حسب مفهوماتها وتعاليمها، وكلها آتية من عند العليم الحكيم الذي أراد أن يخرج هذه الأمة ويوسد إليها هذه المهمة.

من هذه المفهومات والمبادئ التي صاغت الإنسان المسلم:

١- الإيمان المطلق بالله الواحد، والعبودية له وحده دون شريك.

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠ .

(٢) سورة التين: ٤.

(٣) تذكر هذه المقولة في كتب التاريخ التي تتحدث عن معركة القادسية، وما سبقتها من مفاوضات بين المسلمين والفرس، على لسان أحد القادة الذين أرسلهم سعد بن أبي وقاص إلى رستم، وترى على لسان ربعي بن عامر أكثر ما ترى (المراجع).

٢- تقديم العبادة له وحده، والتلقي منه وحده، وطاعته وحده.

٤- الإيمان بالآخرة والعمل الدائب لها، والإيمان بالرسل وما جاء معهم من عند الله.

٥- الإيمان بتفرد الإنسان في خلقه وتكوينه، فلا هو إله ولا هو حيوان، وإنما هو خلق متفرد كرمه الله سبحانه، وصنعه بيده، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأن هذا المخلوق المفضل مكون من قبضة الطين ونفخة الروح كما أنبأ خالقه.

٦- قدرة هذا الإنسان على الصعود والارتفاع: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [1]، وأن ذلك كله مركز في فطرته وليس هو مملى عليه من فوقه بالرغم من حقيقة طبيعته واستعدادات كيانه!.

فهل نرى عمق الفارق بين إنسان هذه المبادئ وإنسان تلك الظروف، وما الأديب والأديبة إلا من إنشاء هذا أو من نتاج ذاك؟!.

ومن هنا تفترق الطريق، ومن هنا يختلف مجال الوجدان وطرائق البوح اختلافاً جذرياً وحاسماً بين أدب ينتجه الإنسان الإسلامي وبين أدب تفرزه نفس نشأت وترعرعت في ذلك المرتع الوخيم، وإن كان يجمعهما جنس الإنسان والكثير من حقائق وجوده التي تقاوم بطبيعتها الآفات بفطرة أعمق من تعاليم المرتع العقيم، متطلعة إلى الحياة الحقة وإلى حقيقة الإنسان.

ومن هنا يتفرد الأدب الإسلامي - أو واجب عليه أن يتفرد - كذلك الأديب والأديبة اللذان ينشئهما الإسلام بوجدان يختلف كثيراً عن وجدان أدباء حضارة الجسد، وبساحات للبوح تتسع آفاقها وتتعدد وتتمايز عن سراديب أدب الواقع المادي التي يسقط في ظلمتها أكثر أدب عبادة الجنس، وكذلك بوسائل بوح تختلف كثيراً عن وسائل حضارة الإنسان الحيوان!.

فإذا تبين لنا بوضوح كاف اختلاف نمطي التكوين، سهل علينا تبين اختلاف المسلكين، سواء في الشعور أو في طريقة البوح به.

---

(١) سورة الشمس: ٧-١٠.

وهنا، والصورة تبدو ناصعة أمام أعيننا نستطيع أن ندخل إلى لب موضوعنا، فقد رأينا من قبل أن مجالات الوجدان وآفاقه التي يستطيع أن يطرقها ويتملاها الكيان الإنساني المسلم، والذي يستطيع أن يمتلئ به قلب الأديب الإسلامي والأدبية الإسلامية هي هذه المجالات الواسعة التي تضم كل نبض حي يخطر في القلب ويهتز له وجدان الإنسان، وهذه كلها مجالات بوح وجداني مفتوحة على مصراعيها بغير قيد ولا شرط، إلا تلك التي يفرضها قانون الأدب على مبدعه!.

وهذه المجالات تبقى دوماً مفتوحة مطروقة للقلب المنفتح على آفاق الإبداع في خلق الله وفي كونه، وفي هذا الوجود الذي لا تفنى بدائعه ولا تغيض ولا تسكن حركته الموَّارة ولا تهمد، كلها تبقى ساحة بديعة يتقلب في ربوعها وجدان القلب الحساس - قلب الأديب المؤمن المبدع - ويسيح في أرجائها بغير حرج.

والدين - كما يقول محمد قطب في كتابه: منهج الفن الإسلامي: (يلتقي في حقيقة النفس بالفن، فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال... وكلاهما ثورة على آلية الحياة)[١].

والفن - كما يقول أيضاً - (هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود في صورة جميلة موحية مؤثرة)[٢].

فإذا كان ذلك كذلك فإن أشواق القلب الحساس، المؤهل للإبداع الأدبي، حين تلتقي بحقائق الوجود التي لا يدركها بحقائقها الأصيلة إلا من يتلقى من مصدر الحق الأكبر فيؤمن بكتب الله ورسله وبكل ما جاؤوا به، وحين يلتقي القلب المتفتح لنور الحقيقة الكبرى بساحة الكون المبدعة وحركة الحياة النابضة الموَّارة، فيستشعر وشائج القربى التي تربطه بهذا كله، فإنه يرتع في آفاق من الجمال والكمال ينهل منها البوح الوجداني حتى يرتوي بغير قيد ولا حرج.

فأما طاقة الحب التي حُصر مجالها في هذا العصر الذي تختنق فيه إنسانية الإنسان، في لون واحد هو ألصق ألوانها بمشاعر التراب، ثم هوى وظل يهوي حتى

(١) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي ص٥، دار الشروق، ط٧، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
(٢) المرجع السابق ص١١ .

غاص في طينها، فهي في حقيقتها إحدى المجالات الواسعة الخصبة في القلب الإنساني وفيها مجال مفتوح للبوح الوجداني تطرقه الأديبة الإسلامية والأدب الإسلامي بغير حرج، فهو يظل بفضل الله مجالاً لألوان لا تحصى من الحب.. فحب الله على قمته، وحب في الله في ذروة منه، وحب للكون والحياة والإنسان، وحب للحق وحب للعدل، وحب للجمال المنبث في صفحة الوجود في كل صوب، وحب للابن والشريك وحب للأهل والوالدين.. وما لا تحصي الكلمات من ألوان حب، وكلها مجالات للتعبير والبوح مفتوحة بلا سدود في وجه الأديبة الإسلامية والأديب سواء، فمالنا نضيِّق ما خلقه الله واسعاً، ونضيِّق بضيقه كياننا الإنساني ونبض قلوبنا ونحاصر مشاعرنا ونسجنها في قفصٍ نسميه الحب؟!.

ثم يبقى لنا حديث عن ذلك اللون من الحب مجال التساؤل في موضوعنا، ذلك الذي اختزل عصرنا الفقير في إنسانيته مجالات الوجدان كلها فيه، فصب إنتاجه الفني كله في أتونه فنقول بصراحة كاملة: إننا لا ندعي أنه أمر هامشي أو سطحي في كيان الإنسان، رغم ما قلناه من مساحته المحدودة في مجالات الوجدان الإنساني الواسع، كذلك من مساحة عاطفة الحب ذاتها، كذلك لا ندعي أن إبعاده وحذفه من العمل الأدبي متيسر دائماً أو غير مطلوب سواء كان هذا الإبداع الأدبي لرجل أو امرأة.. ولنستمع إلى محمد قطب في منهج الفن الإسلامي أيضاً يحدثنا عن هذه العاطفة في حياة البشر، يقول: (ما من شك في أن عواطف الجنس أصيلة عميقة في حياة البشر، بل في كل كيان الحياة: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لايَعْلَمُونَ** ﴿٣٦﴾﴾ [1]. فالأزواج ليست حقيقة بشرية فقط، بل هي موجودة أيضاً في عالم الحيوان والنبات، بل يقول العلم الحديث: إنها موجودة كذلك في عالم المادة، في بناء الذرة من بروتون وإلكترون.. ومع ذلك فالجنس، على كل عمقه في كيان الحياة، ليس هو الحقيقة الوحيدة ولا الحقيقة الغالبة في البناء!.. فينبغي أولاً أن نسأل: هل هو وسيلة في كيان الحياة أوغاية؟ وما مساحته الحقيقية في ذلك الكيان؟»، ثم يجيب بقوله: (كل حقائق الحياة تشير

(١) سورة يس، الآية ٣٦.

إلى أنه وسيلة لا غاية! ثم إنه في النفس السوية لا يأخذ مساحته الواسعة لأنه يغطي على مساحات أخرى مخصصة لغيره من المشاعر، ولكن لأن النفس الإنسانية هي هكذا واسعة شاملة فسيحة، ومن ثم تتسع لكل المشاعر على نطاق واسع دون أن يطغى شيء منها على شيء، ودون أن يختل تناسقها الأخير في صفحة النفس) [١].

ثم إننا لا نستطيع أن نقول إن الجنس وما يشعه في القلب من مشاعر يخرج إلينا في صورة واحدة أو أن ألوان البوح به كلها تتفق وتتماثل، وإنما هي تختلف فيما بينها اختلال ما بين الجمال والقبح، اختلاف ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، فإن هذه المشاعر تستطيع أن تعلو وتحلق في الآفاق حتى تشف وتصفو، وحتى تصير في بعض حالاتها صفاء مطلقاً وإشعاعاً لا تحده قيود، ثم هي تملك أن تهبط وتهبط حتى تنفصل تماماً عن أشواق الروح ورفرفة الجمال فتغرق في حمأ مسنون! ففي أي لون من هذه الألوان سوف تمارس الأدبية الإسلامية البوح؟!.

فأما ذلك اللون الصاعد الشفاف الذي لا ينخدش به الحياء، ولا تجرح بغلظته معاني الأنوثة الراقية، ولا يلوث بهبوطه المجتمع المسلم فلا بأس عليها فيه من البوح، حيث الكلمة المشعة تحل مكان غلاظة التعبير المباشر، وحيث التلميح اللطيف يأخذ مكان جلافة الصراحة الفظة، وحيث الموقف المغلف ينبئ عن الشعور بدلاً من جرأة الكلمات المكشوفة، وحيث النظافة الكاسية تظلل المشاعر، تنبعث من ورقة القلب لا من غلاظة الجسد؟.

وأما ذلك اللون الهابط الغليظ المكشوف الذي طمر وجه الأب في هذا العصر المنكوب بماديته وحسيته، فهو مرفوض بالنسبة للأدبية الإسلامية، كذلك هو مستهجن من الأديب الإسلامي حتى لو كان ذلك بحجة الواقعية، فليس مباحاً على الإطلاق في مجتمع مسلم ما يمكن أن تشيع هذه الفاحشة في مجتمع المؤمنين ولو كان واقعاً قائماً، ففي الإسلام من وسائل القضاء عليه ما يغني عن ذلك البوح المكشوف عن واقع فاحش!.

(١) منهج الفن الإسلامي - المصدر السابق، ص٦٧-٦٨.

ونستطيع هنا أن نشير إلى بعض الضوابط التي تحدد ملامح البوح الوجداني في حياة الأمة المسلمة والمجتمع الإسلامي:

١- ألا يخالف العقيدة الإسلامية في كلية أو جزئية.

٢- ألا يتناقض مع شرع جاء به كتاب الله أو سنة رسول الله أو يسخر بشيء منه.

٣- ألا يخالف الفطرة السليمة التي خلقها الله في أحسن تقويم.

٤- ألا يكون خادشاً للحياء الإنساني الذي هو جزء لا يتجزأ من سلامة الفطرة وحسن التقويم.

٥- ألا يتناقض مع أخلاق المجتمع الإسلامي، علماً بأن الإسلام نظام أخلاقي في أساسه.

٦- ألا تشيع به الفاحشة في هذا المجتمع النظيف.

٧- ألا يدفع إلى الاستهتار بالقيم النبيلة، أو إلى التهاون بالأخذ بها.

٨- ألا يدعو إلى حيوانية الإنسان أو يمجد أي قيمة من القيم التي تتنافى مع القيم الإنسانية.

وهذه شروط وضوابط عامة بالنسبة للأدب الإسلامي في حدوده الواسعة، لا يختلف فيها وضع الأديب المسلم والأديبة المسلمة.. ولكن الاختلاف بينهما يكون في ذلك القليل الذي يفرضه قدر الاختلاف بين فطرة الاثنين ودور كل منهما في الحياة.. وذلك لأن أحدهما قد صيغت فطرته من عند العليم الحكيم لتكون عليه وبه المبادأة بالرغبة والطلب والسعي، ثم كتب للآخر أن يتلقى النداء فيرغب ويستجيب أو يصد فيرفض وهو معتز بذلك الموقف المكرم الذي يكون فيه مرغوباً مطلوباً حتى لو كان هو الراغب في البدء! لا يحب - بفطرته - أن يكون هو الطالب الساعي المتوجه بالنداء حتى لو كان مقبول السعي في نهاية المطاف فإن ضل مسعاه فذلك هو الجرح العميق الموغل الذي لا تقبله كرامته ما دام في استواء في فطرته الصحيحة!.

كذلك يقع بعض الاختلاف بين لوني البوح بما يفرضه هذا الدور الفطري أو ذاك من جرعة الحياة التي تظلل صورة البوح واختيار كلماته الشافة والكاشفة بما يلطف بالنسبة إليها من صلادة الحس، ويذهب عن ذلك البوح غلاظة القول المكشوف.

ثم، فإني أخشى بعد كل ما قلت، ألا أكون قد قلت ما يوضح وما يضع النقاط فوق الحروف، فالأمر ليس يسيراً، وخاصة في غياب المجتمع الذي درج على مفاهيم الإسلام واستوى على طريقه، وحيث تبدو رؤية الإسلام غريبة بعيدة وسط ما يعج به الواقع من رؤية ومفاهيم.. ولكن أؤمن رغم كل هذا أن علينا أن نبدأ من نقطة الصفر في هذه الغربة الثانية للإسلام في أرض الإسلام.. وعلى الله الاعتماد وله الحمد في الأولى والآخرة وسوف أحاول إن شاء الله فيما تبقى من هذا البحث أن أبين قدر المستطاع الصورة المثلى التي يجب أن تكون عليها الأديبة الإسلامية، هي ومجتمعها، من خلالها يمكن لنا أن نتبين - قدر المستطاع أيضاً - ما يجب أن يكون عليه أمر البوح الوجداني في إبداعها الأدبي، بل وأمر الأدب كله، بحيث لا يفقد مقوماته الرئيسية التي تجعله أدباً إسلامياً، ثم لا يفقد في الوقت ذاته مقوماته الفنية التي ترفعه إلى صف الأدب العالمي إن شاء الله.

* * *

الأدبية الإسلامية هي - دون شك - جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، فهي إذن شخصية متميزة لها عقيدتها الخاصة ومفاهيمها الخاصة ورؤيتها المميزة، فهي تصاغ تلك الصياغة الفائقة التي قررها الله سبحانه لخير أمة أخرجت للناس، للأمة التي كلفها الله سبحانه بما لم يكلف به أمة أخرى من قبلها ولا من بعدها، فجعلها الأمة الوسط التي تكون شاهدة على الناس ويكون الرسول شهيداً عليها.

وليس من المقبول منطقياً أن تكون الأمة - وهي خير أمة - في أحسن تقويم، ثم يكون الفرد فيها، بل الخاصة المتميزة من أفرادها، وهي النوعية الأكثر إرهافاً وحساسية في مشاعرها، والأكثر تفتحاً على الكون وبدائع خلق الله فيه، والأكثر قدرة على اتصال القلب بما وراء المادة وما وراء المنظور، وعدم الانغلاق داخل عالم الحواس المقيد، فهي بذلك أكثر تفهماً وتمثيلاً لمبادئ هذه العقيدة السامقة، أن تكون هذه النوعية المتميزة في أسفل سافلين!.

وهنا، فلا بد لنا أن نتساءل: متى يكون الإنسان في أحسن تقويم، ومتى ينتكس فيكون في أسفل سافلين؟!.. فلقد تاهت منا مقاييسنا حين تاهت أقدامنا وتفرقت في ظلمات الطرق!.. لا بد لنا من أن نسأل أنفسنا ذلك السؤال الذي تقلبت به موازين البشر فثقلت هنا تارة وطاشت هناك تارات!.. السؤال الذي ضلت البشرية ضلالاً بعيداً حين أوكلت الإجابة عليه إلى أهوائها وإلى علمها القليل، وهي تجهل ماهيتها وتاريخها وإلام يكون مستقرها ومستودعها!.

فأما نحن - المسلمين، فلقد أجابنا الله سبحانه عن ذلك السؤال إجابة وافية حين أطلعنا على قصة خلقنا وما دار حولها من أحداث عظام هنالك في الملأ الأعلى!.. حين علمنا أنه قد منَّ على حفنة الطين بالخلق والتسوية بيده الكريمة سبحانه، ثم عاد فمنَّ عليها بالنفخة العلوية من روحه، حين قص علينا قصة التكريم وسجود الملائكة، ثم قصة الخطيئة ووسوسة الشيطان، وقصة التوبة والمغفرة والعودة إلى الله، حين أعلمنا أن الخطيئة هي نسيان أمر الله وأن التزام طريقه هو سبيل النجاة، وهو طريق الارتفاع إلى أفق الإنسان الأعلى، وأن رفض هذا الطريق هو الانتكاس إلى مستوى البهيمة أو أضل! فقال ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [١] وحين أوصانا وصية عظيمة تنجينا من الانتكاس فقال لنا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢]. ثم أرانا السبيل ورسم لنا الطريق إلى إنسانيتنا الحقة التي تؤهلنا في نهاية الطريق إلى جنته فقال لنا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٣].

(١) سورة الفرقان: (٤٣-٤٤). (٢) سورة الأعراف (٢٦-٢٨). (٣) سورة الأعراف (٣٥-٣٦).

فهذه الآيات، وغيرها وغيرها الكثير مما حفل به كتابنا الكريم، تنضبط لنا بها الموازين وسط عالم الضلال كلما ادلهمت حولنا الظلمات وتعددت الطرق وتاهت منا السبيل؛ فنعرف حينئذ ونستيقن أن الإنسان يكون في خير أوضاعه حين يكون في طاعة الله وفي الالتزام بما جاءت به رسله، فيكون بذلك بعيداً عن طاعة الشيطان الذي يكشف للإنسان عن سوءاته محاولاً فتنته والهبوط به إلى أوهاق طينه، بعيداً عن النفخة العلوية التي تهبه القدرة على التحليق في آفاق إنسانية في توازن جميل يهبه الإسلام إلى معتنقه، فلا تنخلع قدماه من الأرض كلية فيميد؛ ولا يغرق في طينه فيختنق!.

بسبب من ذلك، وما دام كتابنا الكريم هو مرجعنا الأول، وما دامت سنة رسولنا الكريم وسيرته هي طريقنا ومنهاجنا، فإني أحببت أن أتخذ أمثلتي المبيِّنة، أو ما أستطيع أن أسميه (وسائل الإيضاح) التي قد تنير الطريق أمام الأديبة الإسلامية لما يقره إسلامها من البوح الوجداني، ويعتبره لائقاً بالإنسان في صورته المثلى التي هي صورته الإسلامية، ويراه كذلك نظيفاً كريماً غير خادش لكرامة المرأة وأنوثتها، وبالأحرى الأديبة الإسلامية، أحببت أن أختارها من القرآن والسنة وسيرة الرسول، وحتى لا يكون البشر - وهم عرضة دائماً للخطأ والصواب - هم الذين يحددون لنا معالم طريقنا، والله هو وحده المحدد لمعالم الطريق لخير الأمة، وكتابه الكريم هو الذي يصوغ إنسان المرتقى العالي الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وسنة رسوله ﷺ هي المنهج الذي لا تضل في أنواره القدم فتنزلق بها المنحدرات إلى أسفل سافلين! فإنه كما قال عنه ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[1].

* * *

المثل الذي شد انتباهي مراراً وأنا أمر بالقصص القرآني وهز قلبي، هو ذلك الذي جاء في قصة ابنة الرجل الصالح في مدين مع موسى عليه السلام، وهو الرسول من أولي العزم، في سورة القصص.

(١) النجم، الآية: ٣ .

ولقد هزت نفسي هذه الواقعية الجميلة الرحيمة التي تعترف بالإنسان كما هو دون إعنات له ولا محاولة لمحو بشريته وكتم أنفاس نوازعه ومطالب دنياه! هذه الواقعية الرحيمة التي تعترف للإنسان بحقوق فطرته بجوانبها العديدة ورغائبها الفوقية والتحتية كاملة في اتساق جميل، ثم تضبط له المسار في توازن بديع؛ المسار الذي يحقق له مطالب روحه وجسده معاً دون أن يحيد فتنزلق أقدامه إلى أسفل كما تفعل كل الحضارات الجاهلية بالإنسان، ودون أن تهوم روحه في فراغ منقطع عن بشريته فيتعذب ويتمزق كما فعلت الرهبانية المحرفة بإنسانها.

إن موسى الرسول هو ذاته موسى البشر، الرجل، لا يحرمه ذلك الإعداد الطويل للمهمة الكبرى منذ مولده، على عين الله سبحانه ورعايته، لا يحرمه من بشريته! لا يمنعه ذلك الإعداد المتميز الذي يؤهله للموقف العظيم الذي لا تحتمله طبيعة البشر فيتلقى كلام الله مشافهة بغير وساطة؛ يسمع ويجيب؛ تم تؤهله للمهمة السامقة، مهمة الرسالة عن الله للناس؛ لايمنعه ذلك كله من أن يميل قلبه ذلك الميل الفطري البشري ككل رجل حين يلتقي قلبه بالشق الآخر المفصل بالقدرة الإلهية على قدر مقاسه! لا يمنعه ذلك من أن يستشعر ذلك الحنين إلى الظل والأنس والري والأمن في ظلال عش آمن ناعم يقي من الهجير؛ فيهتف قلبه إلى ربه قائلاً ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فأما هي، ابنة الرجل الصالح - نبي أو من نسل نبوة [2]- فإنها بشر أيضاً، لها كل الحق البشر، لها حق القلب أن يخفق بالعاطفة الخاصة لرجل خاص لا يتساوى عند ذلك القلب مع أي من الرجال، فكيف كانت طرائق البوح في ذلك الموقف الوجداني الذي تشع منه كل بشرية الإنسان.. نبض قلبه ورغائبه الدفينة!.. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾[3].. تمشي

(١) سورة القصص (٢٤).
(٢) تقول بعض التفاسير إنه النبي شعيب، وتقول أخرى إنه ابن أخيه.
(٣) سورة القصص (٢٥).

على استحياء، إنها صورة الفطرة في سلامتها وفي رفعتها وفي كرامتها.. وفي حساسيتها التي لا تقبل، ولا حتى تهفو إلى البوح المتبذل الداعي المكشوف.. لا تميل إلى إغواء أو افتضاح حتى من خلال الحركة الصامتة، إنه الاستحياء الذي قد ينبئ بالموقف عن مكنون القلب دون أن يقول كلمة، ثم ينبئ في ذات الوقت عن الفضيلة والطهر والعفاف.. فأما الكلمات فهي الرسالة المحددة لا تزيد ولا تنقص.. لا يعتريها تلجلج أو تعثر أو ارتباك يستثير أو يغري ضعاف النفوس، ولا يتخللها تخلع ولا تميع ولا ترقق تفوح منه رائحة التهالك على الإمالة والإغراء!.. إنه الحياء الذي تحاول جاهدة حضارة الحمأ المسنون التي تغرقنا أن تمحو أثره وأن تضعه في قائمة الصفات السلبية التي يجب أن تنبذ وتتخلص منها البشرية إلى غير رجعة!..

وهو كذلك الاستقامة والدقة التي تشي بالقوة؛ التي ترد وتردع أي ميل إلى انحراف؛ التي تنفي فكرة «الضعف»، ذلك الذي قد تهتاج به الغرائز السفلى ويطمع الذي في قلبه مرض! إنه ذلك الذي أوصى الله سبحانه نساء النبي الكريم أن يجتنبنه حين قال لهن: ﴿.. **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾[1] وهو سبحانه الذي خلق وهو أعلم بمن خلق، هو أعلم بالهمسة تخطر في أعماق النفوس وأغوار الفطرة!.

ثم ماذا بعد ذلك، ثم يفصح الميل قليلاً عن نفسه، ولكن في موضع من الحياء والكرامة، لا في موضع العرض الخادش لاستعلاء الكرامة!.. إنه حديث مع الأدب الكريم الذي هو موضع الأمن والستر؛ لا حديث إلى ذلك الرجل المطلوب!.. ومع ذلك فهي كلمات تشف ولا تفصح، يحس سامعها نبض العاطفة ولا يراها؛ يرى في ثناياها نبض القلب ولا يمسكه بيده، لا تفصح عنه كلمة واحدة ولكن الكلمات تشير!.

﴿.. **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾**﴾[2] من ذا الذي لا يحس بقلبه نبض ذلك القلب من وراء تلك الكلمات القصار؟.. من ذا الذي لا يلمح ذلك الإعجاب المتواري وراء: ﴿.. **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾**﴾ في ذلك

(١) سورة الأحزاب (٣٢).
(٢) سورة القصص (٢٦).

الموقف البشري الذي يستطيع خياله أن يرى بطليه شاخصين أمامه، رجل في فتوة الشباب المعجب، وفتاة في ميعة الصبا، يغلف عواطفهما عفاف الصلاح وبيئة النبوة؟

قد يقول قائل قد تبلد حسه بفعل مجتمع البوح الغليظ: إنما هي كلمات باردة لا تنبض بعاطفة؛ كلمات تدفعها المصلحة وتطلقها رزانة عقل لا نبضات قلب!.. ذلك أن الأنوف التي ألفت روائح العفن النافذة، لا تستطيع أن تستروح ما تحمله رقائق النسمات من فوح الورود البعيدة.. ولكن ما أشبه هذه المشاعر الرائقة المصفاة تحمل في طياتها ذلك الحنين الغامض إلى الحياة، بفوح تلك الورود البعيدة تحمله نسمات السحر! وما أعمق تناقضها مع هذا العفن الذي يفوح من بوح وجدان الأدب المكشوف!.

فأما رزانة العقل ويقظة المصلحة، فمن قال: إنها تتنافى أو تتصادم في قلب الإنسان الكامل عن نبض العاطفة الحية المكتملة إذا كان هدف تلك العاطفة في القلب جاداً ولم يكن عبثاً لمجرد العبث ولهواً للتسلية أو شهوة عارضة ما تلبث أن ينطفئ أوارها!.

تقول تلك الفتاة المحبة الصالحة: ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾! نعم.. إنها الرغبة تطل من وراء الكلمات؛ الرغبة المكنونة لأن يبقى هذا الذي نبض القلب بوجوده في مجال العيش! أن يبقى فلا يغتال وجوده الفراق بعد أن اجتمع به شمل النفس، والتأم به في الأمنيات الغامضة، الحاضر والمستقبل!.. وإن فيه لتجتمع رغائب القلب ورغائب الحياة، فهو القوي؛ والقوة جمال تتوق إليه الحياة ويجتذب رغائب النفوس ومكامن الفطرة، يجتمع فيه المادي والمعنوي وتهفو إليه حقيقة الأنوثة المكتملة وترتاح..

وهو الأمين، وكم تحمل الأمانة من معانٍ تعشقها الروح ويهفو إليها كيان الإنسان كله، ويشتد وجيبه في فطرة المرأة السوية خاصة، وهي في حاجة ماسة في كل ساعة من وجودها، وفي كل أمر من أمورها إلى ذلك القوي الأمين بجوارها!.. هذا المعنى الذي ترفضه امرأة اليوم، وتتبرأ منه بفعل إلحاح شياطين الإنس والجن، وتصرخ فطرتها شقاء من فقده!.

ثم يتجاوب قلب الأب، أو الأب النبي ويستجيب، وفيه من الحساسية والذكاء ما تتميز به القلوب الكبار، يهز مشاعره ذلك البوح المتواري النظيف يشع بالرغبة والطهر، فليس في نبض القلوب مع التزام الحدود ما يشين حتى حين تشع كلمات بذلك النبض ويبوح بعبقه ما بين السطور!.

يستجيب الرجل الصالح لذلك النبض المغلف بالفضيلة وبنظافة البوح فيقول لموسى: ﴿.. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ.. ﴿٢٧﴾﴾[1].

فيا لها من قلوب فائقة التكوين؛ تعرف كيف تنبض وكيف تبوح، كيف تطلب وكيف تستجيب في نظافة كاسية وعفة سابغة لا تكشف إلا بقدر ما تحتاج الحياة لتنبض، وإلا بقدر ما تحتاج القلوب لتحيا، وإلا لما تحتاجه نفس الإنسان ليسعد وهو في أفقه العالي لا يحتاج لأن يغرز في أوحال الحمأ المسنون!.

وفي القصة القرآنية هذه لا تشير الآيات أي إشارة صريحة إلى تلك العواطف التي بزغت في القلوب، وسارت مسيرتها، وانتهت إلى غايتها فليس ما يدعو إلى ذلك ما دامت تسير في طريقها الصحيح وتصل إلى غايتها البناءة الكريمة، فلا تنحرف فَتفسد وتُفسد فتحتاج إلى توضيح ذلك الانحراف والفساد كما تم في قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام!.. ولكن القلب الذكي يلمحها بين ثنايا السرد، فلقد بدأت اللقيا بين الطرفين - موسى وبنات الرجل الصالح - بفتاتين يجهلهما وتجهلانه، وكذلك يبدأ التخاطب بينه وبينهما معاً، ثم ما تلبث واحدة منهما أن تتوارى تماماً من مسرح الأحداث، لتدور كل الأحداث بعد ذلك بين موسى وإحداهما ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾.. حتى يطالعنا السياق في النهاية بموسى يسير بأهله، بعد أن قضى ذلك الأجل المضروب هكذا في ذلك الخباء العاطفي الجميل، الذي يشيع في القلب الظلال ولا يغوص في أوحال البوح المكشوف!.

ولست أزعم أن ابنة الرجل الصالح كانت أديبة؛ ولا أزعم أيضاً أن طريقتها في البوح هي الطريقة التي يجب أن يلتزم صورتها وتفاصيلها الأدب النسائي، وتتمثلها الأدبية الإسلامية لبوحها الوجداني فلا تحيد عنها، ولكني أردت فقط أن نتملى معاً

(١) سورة القصص الآية (٢٧).

ما يشعه في خيالنا ذلك الجو النظيف الكريم الذي يلبي أشواق الإنسان حتى أعماق الفطرة دون أن تمس قدماه أوحال الطريق ودون أن تتدنى رغائبه وينزلق بوحه فيتكشف ويترك لعواء الطين أن يتفجر!.. ثم نترك بعد ذلك للأديبة الإسلامية أن تختار وسائلها الفنية - وهي كثيرة وميدانها واسع - لبوحها الوجداني، بحيث تبقى الكلمة المشعة المجنحة هي الكلمة المفضلة، ويبقى التلميح الشفاف أفضل كثيراً من التصريح المتوقح؛ وتبقى قبل ذلك كله نظافة المشاعر التي تنبئ عن الإنسان في وضعه الأرقى هي التي تصبغ البوح وتلون الصورة، فليس من طبيعة الإنسان السوي، والمرأة على وجه خاص، أن يتمحض «الجنس» هكذا في كيانه حتى يصير هو المنبع الوحيد لمشاعره ورغائبه، وحتى ينفصل في حسه من كل إشعاعاته العليا، إنما ذلك هو إنسان فرويد المريض وحتى يصير بوحه جنساً خالصاً كالحاً، بل فاجراً في أغلب ألوان البوح الوجداني في ذلك الأدب الحديث، كما يحلو للأدب الواقعي المعاصر أن يصور عاطفة الحب عند الإنسان وخاصة وهو يحاول أن يربط كل عاطفة ينبض بها القلب بدافع مباشر من الجنس، ذلك الذي يصوره عواء صارخاً وراء كل نبضة قلب، تلك النبضة التي تنبع في الحقيقة من حقول واسعة ثرية في أعماق الفطرة تمتد جذورها إلى أغوار الحياة الزاخرة بأنواع الخصب.

ثم إننا نريد أن نتجول قليلاً في تاريخ أمتنا وفي تراثها المجيد فنستمد منه نموذجاً جميلاً آخر لطرائق بوحنا ولوسائل تعاملنا مع مشاعرنا الحميمة تعاملاً نظيفاً وسوياً، وليستقر في وعينا أن إنسان الحاضر المعاصر ليس هو الواقع الأبدي الذي لا مندوحة لنا عن قبوله، وليس هو المثل الذي يتحتم علينا أن نتبعه ونقتدي به، وليس هو الحقيقة الوحيدة للإنسان التي لا حقيقة غيرها كما يريد أن يدخل في روعنا أدباء الجنس!.

نجد في هذا التاريخ، في أفقه المضيء، قصة زواج خديجة، المرأة المثال.. المرأة الكاملة في صورتها العليا.. نرى كيف كان ذلك الوجدان النبيل الذي سمع فعشق، سمع عن محمد الصادق الأمين فعشق الصفات العلى محققة متجسدة بشراً، سمع فامتلأ القلب إعجاباً ورغبة، رغبة هي أنقى الرغبات، وإعجاب يحلق في سماء

أطهر قلب، ونوازع قوية تدفع الرغبة في التلاقي والتوحد وتلاصق العيش لحظة بلحظة وائتلاف الشقين الذي لاتستوي الحياة ولا تستقر الأنفس ولا تطمئن القلوب! إلا في ظلاله، وهل هناك حب نبيل في قلب بعد الحب لله وفيه - أعمق من ذلك في أغوار الفطرة وفي نبض الحياة؟!.. فكيف كانت طريقة البوح؟!.

إنه الوضوح النظيف يتلألأ في وهج الشمس، إنه بوح بالإعجاب لا يخفي ولا يلتوي ولا يتعلثم، لإنه إعجاب بالإنسان في ذروة حضوره وتحققه، بالإنسان في أحسن تقويم، إعجاب بالصفات العليا التي وهبها الله بالنفخة من روحه حين تتحقق ذروتها في بشر، إعجاب لا يلوثه دنس تهافت حيوانين، ولا تلصص رغبة حرام، إنه رغبة نظيفة في لقاء نظيف، لقاء الإنسان بالإنسان، لقاء الشق بشقه الآخر.

والزواج في وضح النور هو قمة اللقاء بين الجنسين وهو في الإسلام الوضع الوحيد الصحيح الذي يقره الله، ومع أنه هو وحده الذي يحل الله فيه لقاء الجنس فإنه لم يشأ سبحانه أن يجعل الجنس هو قاعدته، حتى لا تكون ضرورات الجسد واحتياجات قبضة الطين هي قاعدة الوجود الإنساني ولا منبع العلاقات ومنطلق الوجدانيات في كيانه، وإنما جعل القاعدة التي تقوم عليها العلاقة بين الجنسين هي علاقة صفات إنسانية بالدرجة الأولى فقال سبحانه وتعالى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]. والمودة والرحمة هما من أرقى صفات إنسانية الإنسان وأصفاها.. فإذا جاء عصرنا أو غيره من عصور الهبوط الإنساني فلم يعد يستطيع أن يتفكر؛ فاختزل تلك الوشيجة الإنسانية في عنصر واحد من عناصرها، ثم خرج بها عن وضعها الوحيد المشروع، ثم جعلها نزوة بهيمية لا قصد لها ولا إرادة، ثم أطلق بها «بوحه الوجداني» يجوب الآفاق ويلوث وجه الأرض، فليس لنا أن نظن أن ذلك هو حق من حقوق الإنسان لا يجوز لنا كبح جماحه ولا حرمان المرأة من حقها فيه!.

ثم نعود إلى سيدة نساء العالمين خديجة لنرى كيف كان ذلك البوح النبيل، وقد حمل دوافعه قليلاً ذلك القلب النبيل حتى استوفى فيه كاملاً واضحاً محدد الأهداف!.

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١.

تقول إحدى الروايات أنها قد بعثت إلى الصادق الأمين، ثم عرضت عليها نفسها قائلة في جدية كاملة لا يشوبها التواء: «يا ابن عم، إني رغبت فيك لقرابتك وسطتك[1] في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك» وموضع خديجة في مجتمعها إذ ذاك يتيح لها مثل هذا العرض الواضح الصريح، فهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وكل قومها يرغبها ويتمنى لو يقدر على ذلك.. فهي في مأمن كامل إذن من أن يخدش ذلك العرض لها كرامة أو يلمس لها شرفاً أو مكانة.

ومع ذلك فإن هناك رواية أخرى هي أقرب إلى الصحة والصدق في ميزان الفطرة تقول: إن خديجة بعد ما سمعت الكثير عن شخصية محمد ﷺ مما بهرها، وبعد أن لمست حقيقة ما سمعت في تعاملها معه حين قام لها بأعمال التجارة، وبما قر في قلبها مما حكاه عنه خادمها ميسرة من إرهاصات حول شخصه الكريم، فقد امتلأ قلبها، به إعجاباً ورغبة حتى تمنت لو تستطيع أن تبوح بما يكنه قلبها فأرسلت إلى صديقة لها هي «نفيسة بنت منبه» التي هي موضع ثقتها، لتبوح لها بمكنون مشاعرها، لتبثها رغبتها الحميمة في أن تكون زوجة لذلك الإنسان الكريم، وهنا قامت نفيسة بوساطة ذكية تعرض فيها ذلك العرض الجميل، وكأنما هي صاحبته، وكأنما هي واسطة خير له، تدبر له من جانبها ذلك الخير الكبير الذي هو أهل له، وذلك لتظل مكانة المرأة الراغبة المحبة مرفوعة فوق الطلب والسعي، وليظل دورها محفوظاً سامقاً.

ولست أزعم كذلك أن سيدتنا خديجة كانت أديبة محبة تبوح بوجداناتها على هذا النحو أو ذاك، فيكون هذا النموذج من البوح مثالاً يجب أن تحتذيه بنصه أديباتنا الإسلاميات، ولكني فقط أعرض صوراً من الوجدان السامق للمرأة الكاملة العفيفة، وصوراً نظيفة راقية من طرائق البوح مرة بالكلمات ومرة بالمواقف، لترتسم في أذهاننا تلك الأجواء العالية الكريمة للبوح، ذلك الذي يليق بالأديبة الإسلامية أن تنطلق منه وتتحرك بمقتضيات جوه النظيف العفيف الذي يصوغ الوجدان ذاته، ثم

(١) السطة: الشرف والمكانة.

يحدد له مسارات البوح التي لا تخرج بالأدبية الإسلامية من طريق الفطرة الصحيحة والكرامة والعفاف، ولا تنزلق أقدامها إلى الطرق المنحرفة الآسنة، فتشارك بذلك في الفتنة وفي إخراج قومها من سبيل الحق الذي يقول الله عنه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ إنه السبيل الواحد السليم، إلى تلك السبل التي نهى الله هذه الأمة التي أخرجت للناس، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، أن تتبعها فتضل وتنحرف عن سواء السبيل.

ثم إننا، لنزيد الصورة وضوحاً أمام أعيننا، فإننا نلقي عليها بعض الضوء عن طريق مقارنتها بصورة أخرى من البوح الوجداني نختارها أيضاً من القرآن الكريم، هي الصورة المعروضة في سورة يوسف في قصة امرأة العزيز.

امرأة العزيز هي امرأة أنتجتها حضارة جاهلية - إذا جاز هذا التعبير - كهذه الحضارة التي أنتجتنا، أو شاركت على الأقل في صياغتنا! امرأة العزيز هذه يملأ قلبها إعجاب مفرط بيوسف، الشاب الفاره الحيوية والجمال، ثم ما يلبث هذا الإعجاب أن يتحول إلى حب واله مشتعل يغرز في طين الجاهلية التي صاغت مشاعرها ووجداناتها ولون رغائبها وطرائق بوحها!.

وأظنني لست بحاجة للدخول في تفاصيل قصة امرأة العزيز، فكلنا نعرف تفاصيلها الدقيقة؛ نعرف تصرفاتها الوقحة مع يوسف، نعرف كذبها وادعاءاتها، نعرف موقفها الطافح بالفجور والتبجح من كل لون مع نسوة المدينة؛ نعرف كل ما فعلته وما قالته في جاهليتها؛ ونعرف من خلال ذلك كله طبيعة المجتمع الذي عاشت فيه، نوعية نسائه ونوع رجاله، ولو تقاليده وقيمه ومثله، ثم كذلك ألوان المظالم السائدة فيه، ثم درجة انطماس إنسانية الإنسان فيه وظلمة روحه، فندرك بذلك مناقضته الجذرية لمجتمع الإيمان بالله والالتزام بمفاهيم دينه وبتعاليم أنبيائه.

ثم إننا نرى التناقض الكامل بين شخصية امرأة العزيز تلك وبين الشخصيتين السابقتين - ابنة الرجل الصالح في مدين، ثم السيدة الكريمة - خديجة - التي جعلها الله أهلاً لرسوله المصطفى؛ تلك السيدة الفائقة التكوين التي استعلت على

جاهلية قومها، وظلت مترفعة النفس سامقة الروح، مشرئبة القلب إلى النور الذي سوف يتفجر قريباً من ثنايا الظلمة الحالكة فينير مشارق الأرض ومغاربها!.

ونستطيع أن نرى كفلق الصبح مدى سموق هذا ومدى سقوط ذلك، وكيف يتناقضان كما يتناقض الأبيض والأسود، ففي إحدى الكفتين نجد الإنسان الأعلى بصفاته المميزة ورقية الإنساني وفطرته السوية، فأما الكفة الأخرى فهي تعج بكل ألوان التدني والقحة والفجور الذي تمَّحي معه سمات الإنسان وصوته، ليحل محلها خوار البهيمة وسمتها! ويتوارى ندى نبض القلب وراء جحيم سعار الجنس؛ ويغيب مجتمع العفة والنظافة والعدل، ويبرز مجتمع الفاحشة المستعلنة الذي ينسحق فيه كل أثر لفضيلة أو حياء أو عدالة..! فأينا يستطيع أن يرى الجمال الحق متمثلاً في ذلك النموذج الطاهر ثم يطيق أن يلوثه بذلك القبح الشنيع؟! وأينا يستطيع أن يرى العدل والحرية يختنقان في مجتمع الفاحشة، ذلك الذي يخون بعضه بعضاً، ويكيد بعضه لبعض، ويظلم فيه الضعيف بضعفه، ويتبجح فيه القوي بقوته، وتؤكل فيه الحقوق، ويلقى فيه الأبرياء في غياهب السجون بغير جريمة، وإنما بجريمة ارتكبها الأقوياء! ثم لا يتوق أن يعيش في مجتمع تظله كرامة الإنسان وتهديه إلى الحق والعدل تعاليم السماء، وهو ذاته - إذا نظرنا نظرة فاحصة في التاريخ القديم والحديث - هو ذاته مجتمع الصون والعفاف والحياء والفطرة لا ينفصل هذا عن ذاك؛ فهما مجتمع واحد يقوده الأنبياء والمؤمنون من بعدهم وتوجهه تعاليم السماء.. نعم فذلك المجتمع - مجتمع الظلم والفاحشة - يسود فيه إنسان الحمأ المسنون؛ وهذا المجتمع - مجتمع الحق والعفاف - يسود فيه إنسان التوازن الجميل بين قبضة الطين ونفخة الروح الذي كرمه الخالق وهداه السبيل!.

ولكن ما لنا نبعد بعيداً في ملفات التاريخ وشخصية امرأة العزيز هي ذاتها يتمثل فيها الضدان؛ بلونها الأسود الكالح السواد في جاهليتها، ثم يسبغ البياض عليها من ردائه الجميل بعد الإيمان فتقول كلماتها النابضة بالحق والرفعة والعفة والعدل؛ التي سجلها لها التاريخ والله - سبحانه - من فوق التاريخ في كتابه الكريم الذي

يخلد به ما تمسه كلماته ويثبت ثبات الحق الأزلي: ﴿.. قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[1].

فلنقارن هذا بكلمات أخرى لها في جاهليتها حين جمعت النسوة اللاتي تحدثن عن سلوكها الفاسد مع فتاها قائلات ﴿.. امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[2] لنرى كيف كانت إجابتها على حديثهن ذلك الذي ينضح باللوم.. لقد قالت في وقاحة سافرة لاتستحي: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

وإننا لنرى هذا الفارق العميق البعيد بعد الأبيض من الأسود، وبعد السماء من الأرض، وبعد النور من الظلمة ونرى معه هذا الفارق الدقيق في طرائق البوح ذاتها؛ الفارق بين الحديث عن غائب؛ الحديث الذي يتوجه به إلى الحاضرين وهدفه الأول أن يصل إليه بكل ما يكنه من اعتراف بالحق والفضل، وبكل إقرار بالذنب وتبرؤ من الذنب، وبكل اعتراف بالخطيئة وإعلان التوبة.. الفارق بين هذا وبين تلك المواجهة الصفيقة في حضرته وحضرة الآخرين، تلك المواجهة التي لا تستحيي أن تقر بالفعل الشائن وتصر عليه وتهدد بالسجن من يترفع ويتقي؛ هكذا أمام الخلق.. تماماً كما يحدث في هذه الجاهلية التي تغرقنا؛ تهاجم به بيوتنا أصوات الإعلام الفاجرة لتصبه في أذن كل نظيف يتقي أوحال طريقه، فتكرهه على تجرعها إكراهاً وتمجد فاعليها وترفع ذكرهم وتقلدهم أعلى الأوسمة؛ حتى تذوب مقاومة الجموع وتنهار، ويسلس قيادها فيكون حطامها في يد أولئك الذين يريدون أن يتربعوا على عرش العالم.

لذلك، ومن أجل ذلك، كانت تلك الضوابط تحيط بأمر البوح الوجداني في عمومه، وبوح الأدبية الإسلامية في مجتمع الإسلام على وجه الخصوص، مسألة

(١) سورة يوسف (٥١-٥٣).
(٢) سورة يوسف - (٣٠).
(٣) سورة يوسف (٣٢).

شديدة الأهمية؛ فالأمر كبير لا يقف عند حدود ذلك البوح، وإنما هو يفترش المساحة الواسعة من حياة الناس، ويتخلل الأعماق والثنايا في كيان المجتمع.

وحين نلقي نظرة فاحصة متأنية على تاريخنا الحديث وما تم في قرنه الأخير هذا، من انتقال أمة يزيد تعدادها على المليار من مفهومات وتقاليد وطرائق تفكير وطرائق عيش؛ انتقالها من النقيض إلى النقيض.. انتقالها من دين الله إلى دين الملك! ونرى دور الكلمة في هذه النقلة البعيدة الأغوار، الواسعة المدى، وبالتالي دور الأدب بكل صنوفه ومجالاته، ثم دور البوح الوجداني فيه خاصة، يتبين لنا عمق الخطر في هذه القضية.. فإذا عرفنا دور المرأة البالغ العمق في بناء القيم لأمة من الأمم؛ وعرفنا أن سقوط هذه اللبنة التي تكون أساساً راسخاً في البناء، يعنى حتماً سقوط البناء بكامله؛ إذا استقينا من ذلك كله استطعنا أن نقدر مسؤولية الأديبة الإسلامية في هذا المجال.

ولسوف يصرخ في وجوهنا العلمانيون المستغربون، ودعاة الأدب المكشوف، المنفلت من كل قيود القيم ومن كل الضوابط الأخلاقية بحجة الجمال والحرية والإبداع الطليق، إلى آخر تلك المقولات، ولسوف يتهموننا بالرجعية وبإفساد الأدب وسجنه في قفص الدين والتقاليد وتحويله إلى وعظ ممل!.

ونجيبهم على التو، أننا نطالب للأدب بالحرية والجمال والإبداع الطليق كما يطالبون، ولكن الفارق بين مطالبنا ومطالبهم تكمن في الفارق بين مفهومنا ومفهومهم للجمال والحرية والإبداع الطليق!.. الفارق أننا نطلب حرية «الإنسان» وجمال «الإنسان» وإبداع «الإنسان».. نطلب إنسانيته «الإنسان الذي استطاع حقاً أن يتحرر من قيوده فيصير سيد نفسه، الذي ملك شهواته ولم يدعها تمتلكه، تحاصره حتى تخنق فيه أنفاس إنسانيته، الذي استطاع أن يرتفع بغرائزه فلا تهبط هي به تقوده من أسفل إلى أسفل حتى تقتله، الذي استطاع أن يرفعها وينقيها ويصفيها من كدرها حتى يخرجها إشعاعاً يهدي وينير، وصفاء يدر الجمال والخير!.

الفارق بين مطلبنا ومطلبهم هو أننا لا نريد أن يكون الأدب هو المستنقع الذي يلقي فيه إنسان دارون وفرويد بأقذار إفرازاته؛ وتكون أفعل أدواته لهذه المهمة هي

بوحه الوجداني الذي يستمد مادته من أسفل كيانه!.. ثم ينطلق بعد ذلك صراخ المساواة مطلباً بإغراق الأديبة في أوحال المستنقع حتى لا تتخلف عن زميلها الأديب في شيء!.

الفرق بيننا وبينهم أننا نريد بوحاً يبني لا بوحاً يهدم.. أننا نريد أدباً يبني الفرد بناء إنسانياً نظيفاً قوياً، ويبني الأمة التي تكون خير أمة، تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يشارك جاداً في بناء أمة أخرجت من قبل للناس لتتقلد أعظم مهمة في البشرية، لتخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما قال «ربعي بن عامر» لقائد الفرس.. نريد أدباً يبني المجتمع النظيف العفيف الذي تندر فيه الفاحشة ويُستنكر وقوعها، ويصفو فيها حس الإنسان ويرق حتى لا يطيق فوح عفنها.. وهذا من حق المجتمع على الفرد، خاصة هذا الفرد المتميز الذي وهبه الله هذه الموهبة الجميلة، موهبة الإبداع الفني، وجعله بها موجهاً لمجتمعه!.

وقد يستثير هذا القول تلك المعركة الوهمية بين حرية الفرد وحقوق المجتمع، فيقول المدافعون عن حرية الفرد في وجه سطوة المجتمع الظالم الذي يريد أن يكبل حرية الفرد ويفرض عليه قيوده وشروطه وحتمياته! يقولون: إن الأديب لا يمكن له أن يبدع إلا وقد انفك عنه كل قيد، وانطلق يعبر عن ذاته وعن مشاعره بلا حواجز ولا سدود، بلا حدود ولا أسوار، بلا خوف من سلطة أخلاقية ترفع عليه العصا! إنما يعبر حراً عما تمليه مشاعره ويصوره خياله، ويرسمه الواقع الذي يحيط به.

فأما عندنا، في مجتمعنا الإسلامي، فتنتفي تلك المعارك الوهمية بين الفرد والمجتمع، فليست هناك فواصل ولا أسوار بينهما تحدد مصالح هذا وحقوق ذاك؛ فالفرد هو جزء لا يتجزأ من المجتمع، والفرد هو صانع المجتمع وحاميه؛ والمجتمع هو الكيان المجتمع من مجموع هؤلاء الأفراد يحمل مفاهيمه وأخلاقه ويتحرك وفق وجهته، ويكون سياجه الواقي من الزلل وحارسه الذي يحميه من الانحراف.. حقوقه على الفرد يقابلها بقدرها واجبات، وحقوق الفرد عليه تزنها في الكفة الأخرى واجباته تجاهه.

من أبرز واجبات الفرد المسلم تجاه المجتمع المسلم، ألا يترك للفاحشة مجالاً لأن تشيع فيه، وأمر الله سبحانه وتعالى واضح صريح في ذلك حين يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[1]

نعم.. فالله سبحانه يعلم مدى البلاء والضيق والعذاب من كل نوع، ذلك الذي ينصب فوق حياة الجميع حين تشيع الفاحشة في مجتمع؛ فيذهب ضحيتها «الفرد»؛ وهو الذي يدافع أصحاب ذلك المنهج المختل عن حقه في الانفلات من كل قيد بلا حدود ولا ضوابط؛ الفرد الذي شارك في ذلك البلاء والفرد البريء من أية مشاركة؛ لأن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة، ولكنها تصيب الذين ظلموا والذين سكتوا على الظلم نجاة بأنفسهم وحرصاً على سلامتهم، أو أولئك الذين استهانوا به أو مالوا بأهوائهم إليه؛ بل حتى أولئك الذين استضعفوا فخنعوا لذلك الظلم واستكانوا!.

ونظرة واحدة إلى مجتمعاتنا المعاصرة، ترينا بوضوح هذه الحقائق جميعها! ونظرة واحدة في صفحة الحوادث في أية صحيفة تكشف لنا عن عمق البلاء؛ ذلك الذي يفيض حتى يتخطى عتبات البيوت فيغرق ساكنيها الآمنين، أبرياء وغير أبرياء! ونظرة واحدة نلقيها على تعاسة حضارة «الإيدز» تغنينا عن التفكير الطويل؛ وما تعاسة هذه الحضارة ومعتنقيها إلا من ذلك النبع الملوث الذي تدفق من الحمأ المسنون؛ تدفق فلسفة ونظريات وأفكاراً تلح على عزل الإنسان عن إنسانيته وحصره في ماديته، بل في حيوانية لا يشع فيها قبس نور؛ ثم إطلاق هذا المخلوق الشائه في الأرض يعربد؛ يملأ الأرض دنساً وخراباً يسميه أدباً، أدبا يدفق فيه بوحا منفلتا من كل قيد إنساني؛ ولماذا يتقيد بفضائل الإنسانية وهو الحيوان المتدرج من أدنى أصل؟.. ولماذا يستعلي وهو من أعماق الطين وعائد إلى أعماق الطين!.. ويتفجر البوح الطيني حتى يطمر البشرية؛ حتى يغرق طوفانه كل الفجاج؛ وحل يتوهج سعيره لا يبقي ولا يذر، ولا يستنقذ منه حتى الأبرياء القابعون في بيوتهم وصدق

(١) سورة النور الآية (١٩).

رسول الله ﷺ حين يقول: (**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون**) [١].. وهل البوح «الوجداني» الذي يغرق أسواقنا الأدبية المعاصرة، فيما عدا القليل النادر مما رحم ربي، إلا استعلان الفاحشة، على درجات تغرق في الطين أو تحوم حوله! تبدأ مختبئة وراء عاطفة صحيحة طيبة في طبيعتها السوية، ثم ما تلبث أن تغرق في دنسها المقزز إلى قمة رأسها بحجة الواقعية، بحجة حيوانية الإنسان حتى في قمة تطوره، ثم بحجة ارتكاز كيانه كله من ألفه إلى يائه على «الجنس» وإفرازات الجنس ومشاعر الجنس، حتى وهو في أشف أشواق روحه وفي ألطف وأصفى توجه له نحو خالقه!.

الأدبية الإسلامية إذن لها دور؛ وأي دور هائل هو؟!، هو استنقاذ مجتمعها من بؤرة أوحال الحمأ المسنون التي سقط فيها وهو في غفلة من وعيه، ضل فيها عن تاريخه وعن تراثه وعن ماضيه، بل ضل فيها عن حقائق خلقه وأسباب وجوده!.. ثم ظل يخبط في التيه وقد ضاعت منه معالم السبيل فتفرقت به السبل، وأصبح غثاء كغثاء السيل!.

إن عليها أن تعيده إلى حقائق خلقه وهدف وجوده؛ أن تعيد إليه علمه القديم الذي هو قبس من النور الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد.. عليها أن تشارك مشاركة فعالة في تعريفه بخصائصه وهدف إخراج هذه الأمة إلى الناس ودورها في توجيه البشرية إلى الخير وإلى إقامة الحق والعدل في هذه الأرض، وأن تعرف عظمة هذا الدور وأهميته وجديته البالغة..

عليها إذن أن تبثه بوحاً نظيفاً عفيفاً جاداً، لائقاً بالإنسان في تقويمه الأعلى؛ لائقاً بالمرأة الكاملة في قمة خلقها؛ في نظافة أنوثتها وفطرتها!.. عليها أن تهبه المثال الآخر الكريم الذي غاب؛ للمرأة الإنسان، وللرجل الإنسان سواء، ذلك المثال الذي كاد يندثر ويتوارى بين طيات الوسخ الذي تعج به الساحة!.

وليس السبيل إلى ذلك إلا أن تعود هي إلى تلك القيم، تعود إلى إسلامها الواعي، تستقي مفاهيمها من مفاهيم، وتصوغ حياتها كلها حسب رؤيته ووفق منهاجه وتعاليمه وتوجيهه، أن تتكيف به مشاعرها ويستوي عليها نبض قلبها، وأن تستقيم

(١) رواه ابن ماجة والحاكم.

به ومعه فطرتها وهمسات رغائبها!. أن تكون شخصيتها بكاملها مصداقاً للحديث الشريف: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[١]. ثم تخرج من ذلك كله أدباً يحتل مكانه المرموق، ويعلو فوق أدب الجنس؛ تخرجه بوحاً وجدانياً رائعاً في كل مجال من مجالات البوح ومجالات الشعور، لا يغلق حينئذ طريقها أي مجال وقد التقت فطرتها بينابيع الحق الكبرى، وتكيفت رؤيتها ومفاهيمها ومشاعرها بذلك الوهد الصافي المنزه عن الضلال، فإنها حينئذ لن تضل الطريق، ولن تسقط في أوحال المستنقع ولو غطى سطح الأرض؛ ولن تحتاج وقتها كثيراً لمن يحدد لها ما تبوح به وما لا تبوح، ولن تحتاج إلى من يبصرها بمواصفات هذا البوح ومحاذيره، ولن تضطر وقتها كثيراً إلى أن تقرأ قائمة الممنوع والمسموح؛ فلسوف يكون لها يومئذ من نور الهدى الهادي الذي استقر في فطرتها وفي أعماق رؤيتها وأعماق مشاعرها ما يغنيها، وما يوجه نبض قلبها وإشعاع روحها إلى الأفق الأعلى للإنسان.. سيكون لديها بفضل الله ما يهديها سواء السبيل..

إن للأديبة دوراً هائلاً إذن في بناء أمتها لا يغني فيه أحد غيرها؛ وإنه لواجب مقدس عليها أن تؤديه؛ وإنه لجهاد من أعظم الجهاد في هذه المعركة الكبرى التي تدور رحاها بين الحق والباطل، وإنه لفرض عين الآن على الأديب المسلم والأديبة المسلمة أن تخوضه والأمة تهدد بالابتلاع الكامل في بطن «النظام العالمي الجديد» هذا النظام الوحشي الذي يريد أن يبتلع الأرض في جوفه الأسود المتعفن!.

إن المعركة هي معركة ثقافية في المقام الأول؛ تؤدي الكلمة فيها دوراً بالغ الأهمية، ويكون للأدب فيها مكانه الذي لا يمكن تجاهله؛ والأدب الإسلامي هو بذلك على ثغرة من أعظم الثغور وأهمها؛ والأديبة الإسلامية مع الأديب الإسلامي جنود في هذه المعركة التي هي معركة وجود أو ضياع، لا في الدنيا وحدها ولكن في الدنيا والآخرة؛ فعليهما، وعلى الأديبة الإسلامية بوجه خاص أن تعد لهذا الجهاد عدته فتدخل الساحة ومعها أهم ما تسلح به جندي في معركة.. سلاح العقيدة.. ذلك الذي يفل كل الأسلحة، ولا تفله الأسلحة، ما دام الله قد كتب من فوق سبع سماوات أن الأرض يرثها عباده الصالحون.

---

(١) الإمام النووي في كتاب الأربعين النووية.